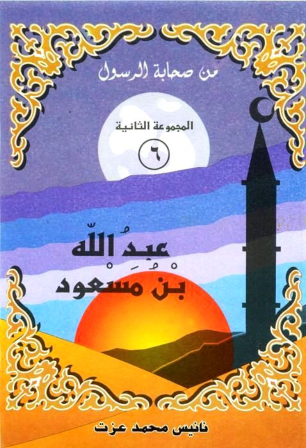

من صحابة الرسول
المجموعة الثانية
٦
عبدُ اللّه
بنُ مسْعود
نانيس محمد عزت

عبدُ اللّهِ بنُ مَسعود

رجع مَمدوحٌ من المَدرسة ، ودخلَ على والدِهِ وهو فَرحان ، وقال :

ـ انظُر يا أَبى ماذا وَجدْت ؟ وَجدْتُ ساعةً رقْمِيّةً رائِعَة !

قال والِدُه : مَهلاً يـا مَمدوح ، واحكِ لى القِصَّةَ من أوَّلها .

قال مَمدوح : بينَما كنتُ ألعبُ فى فِناء المَدرَسة ، وفى أثناء الفُسحَة ، وجدتُ هذه السّاعةَ مُلقاةً على الأرض . انظُر يا أبى ، إنّها ساعةٌ رَقْمِيّه ، بها آلةٌ حاسِبَة ، ولُعبةٌ إلكترونِيَّة .. كم أنا مَحظوظ !

تعجَّب والِدُه وقال : مَحظوظ ! لماذا ؟ أَتنوى أن تَحتفِظَ بها لنَفسِك؟

قالَ مَمدوح : ولماذا لا أحتفظُ بهـا لنَفسى ؟ فقد وجدتُها فهى حَقٌّ لى .

قـالَ والـدُه : مـن قـالَ ذلـك ؟ إنَّ لهـذه السّـاعةِ صاحِبا ، ولابدَّ أنّه حزِنَ لفقدِها وبَحَـث عَنهـا كَثـيرا . وأَعتقدُ أنّه أبلغَ إدارةَ المدرسَةِ بفَقدِها .

قالَ ممدوح : أتعنى يا أبى أنّى لا أستَطيعُ أن أذهبَ بها إلى المدرسَه ؟ حَسنا ! سأستعمِلُها هنا فى البَيْت .

غَضِبَ والدُه وقال : ألا تَفهمُ قصدى يا مَمدوح ؟ إنَّ هذه السّاعةَ ليستْ حقًّا لك . فالأمانـةُ تقضـى أنْ تذهـبَ وتُسـلِّمَها لإدارةِ المدرَسـة ، فتُسـلّمها إدارةُ المدرَسةِ بدَورِها إلى صاحِبها .

فسكتَ مَمدوحٌ ولم يُعلِّق على كَلامِ والِدِه ، فقـالَ له والِدُه : أتعلمُ يا مَمدوحُ يا وَلَدى أنَّ هذه السّاعةَ الّتى وجدتَها ، هى بَمثابَةِ اختْبارٍ لكَ ولأمانَتِك ، فـإنْ نَجحتَ فى الاخْتِبار ، ورددَتَها لصاحِبها ، سيُكافِئُكَ

اللَّـهُ بـأفضلَ منهـا ، ولا يَتحتـمَّ أن تكـونَ المُكافـأةُ مادِّيَّة ، فقد تكونُ مُكافأةً مَعنويَّة .

تعجَّب مَمدوحٌ من كَلامِ والِدِه ، وسأله : وكيف ذلكَ يا أبي ؟

قالَ والِدُه : سأحكي لك قِصَّةَ واحـدٍ مـن صَحابَةِ رَسولِ اللّه ـ صلّى اللّهُ عليهِ وسـلّم ـ كـانتِ الأمانـةُ مـن أَبـرزِ صِفاتِـه ، حتّـى قبـلَ أن يَعتنـقَ الإسْـلام . وسُتعجبُكَ قِصَّتُه ، وسوفَ تُفيدُك إن شاءَ اللّه .

سأَلَ مَمدوح : ومن هو يا أبي ؟

قال والِدُه : هو عبدُ اللّهِ بنُ مَسعود ، أو « ابـن أُمِّ عُبْد » كما كـان النّـاس يُطلِقونَ عليـه . وكـان أوّلُ عهدِ عبدِ اللّه بن مَسعودٍ بالرَّسول ـ صلّى اللّـهُ عليـه وسلّم ـ وهو غُلامٌ صَغيرٌ يرعَى الغَنَم لسَـيِّدِهِ « عُقبـةَ بن أبي مَعيط » ، فكان يخرجُ بهـا مـن البُكـور ، ولا يعودُ بها إلاّ إذا أقبلَ اللّيل .

وحدثَ ذاتَ يَوم وهو يرعَى الغنَمَ فى شِعابِ مَكّة ، أن أقْبلَ عليهِ كَهلان تبدو عَليهما آثارُ التّعبِ والعَطشِ الشَّديد ، وما كان هذان الكَهلان سوَى رسول اللَّهِ - صلّى اللَّهُ عليهِ وسلّم - وصاحبهِ أبى بكر الصِّدّيق ، وطلبا منه بعضَ اللَّبن . قالا له : احلبْ لنا يا غُلام من هذه الشِّياه ما نُطفئُ بهِ ظَمأنا ، ونبلّ به عُروقنا .

فرفضَ عبدُ اللَّهِ وقال : إنّنى مُؤتَمَنٌ عليها ، ولَستُ ساقيكُما منها .

تعجَّب مَمدوحٌ وقال : أرفضَ أن يُعطِيَهما بعضَ اللّبن ، ولم يكن سيِّدُهُ ليلْحَظَ شيئًا .

قال والِدُه : إنها الأمانَةُ يا وَلدى ، وهذا ما كنتُ أقولُه لك . . .

إنّه مُؤتَمنٌ على شَىء ، فليسَ من حَقّه أن يُفرِّط فيهِ أو يُضيِّعَه .

عِندئذٍ طلبَ مِنه الرَّسول ـ صلَّى اللَّهُ عَليهِ وسلَّم ـ أن يدُلَّه على شاةٍ صَغيرة لم توطَأْ[١] بَعد ، فمسَح على ضَرعِها بيَدِه الكَريمَة وذكرَ عليها اسمَ اللَّهِ ودَعا ، فامتلأَ ضرْعُ الشّاةِ باللّبن . وجاءه أبو بكر بصخرة مُقعرَّة فحلبَ الشّاةَ فيها ، وشربَ الكهلان وسقَيا الغُلامَ حتَّى ارتَووْا جميعا . ثم أمرَ الرَّسولُ ضرعَ الشّاةِ أن يتقلّص ، فتقلّص .

هنالكَ تعجَّب عبدُ اللَّهِ بنُ مَسعود ، وقال : علِّمني من هذا القَول الَّذى قُلتَه .

فقال له ـ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم ـ : إنَّك فتىً مُعلَّم.

وكانَ هذا أوّلَ لقاء لعبدِ اللَّهِ بالرَّسول ـ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم ـ وقد أُعجبَ الرَّسولُ بأمانَتِه وإخلاصِه ، وتَوسَّم فيه الخَيْر .

---

(١) توطأ : تنكح ، تتزوج .

ولم يَمضِ على هـذا اللّقـاء إلاّ وقتٌ قَليل ، حتّى أقبلَ عبدُ اللّه على الرّسولِ - صلّى اللّهُ عليه وسلّم - وأعلنَ إسلامَه ، فكان مـن العَشْرةِ الأوائـل ، الّذيـن أسلَموا قبل دُخولِ الإسْلامِ بيتَ الأرقـم . وعـرضَ عبدُ اللّهِ نَفْسَـه لِخِدْمـةِ الرّسـول ، فلازمَـهُ فـى غُـدوِّه ورَواحِه ، فكانَ يُلبِسُـهُ ثَوبَـه ، ويَحمِـلُ عَـنهُ عَصـاه ، ويوقِظُه إذا نام . وبلغَ من حُبِّ الرّسولِ إيّاه ان كـانَ يَسمحُ له بالدُّخول عليهِ وقتما يَشـاء ، ويُطلِعُـه على سِرِّه ، حتّى دُعِيَ بصاحِبِ سِرِّ رَسول اللّـه - صلّى اللّهُ عليه وسلّم - وقد غَنِمَ عبدُ اللّهِ الكَثيرَ من مُلازَمةِ الرّسول ، فاهْتَدى بهَديه ، وتَخلّقَ بأخلاقِه ، وتابعَهُ فى كلِّ خَصلَةٍ مـن خِصالِـه ، حتّى قيـلَ عنـه إنّـه أقربُ النّاسِ إلى رسَولِ اللّه - صلّى اللّه عليه وسلّم - هَديًـا وسَمتا .

قالَ مَمدوح : ياله من غُنمٍ غَنِمه ، فهَنيئًا له صُحبةُ الرَّسول .

قال والِدُه : وفضلاً عن ذلك ، فقد حَفِظَ القرآنَ الكَريمَ عن الرَّسول نَفسِه ، فكانَ من أقرأ الصَّحابَةِ للقُرآن ، وافهمِهم لَمعانيه ، وأعلَمِهم بشَرعِ اللّه . فنجدُهُ يَقولُ عن نَفسِه : أخذتُ من فَمِ الرَّسول ـ صلّى اللّه عليه وسلّم ـ سَبعينَ سورةً لا يُنازِعُنى فيها أحد .

وفى ذاتِ يوم وهو يُصلّى بالمَسجد ، أقبلَ عَليه الرَّسول ـ صلّى اللّهُ عليه وسلّم ـ وأبو بكرٍ وعُمَرُ بنُ الخطّاب ـ رضى اللّه عنهم جَميعا ـ فاستمعوا لصلاتِه ، فقالَ لهم رسولُ اللّه : من سَرَّهُ أن يَقرأَ القُرآنَ رَطبًا كما نَزل ، فليَقرأْهُ على قِراءَةِ « ابنِ أمِّ عَبد » .

وما أن انتهى عبدُ اللّهِ من صلاتِه ودعا ربَّه ، حتّى أمَّن الرّسولُ على دُعائِه وقال : سَلْ تُعْطَ .. سَلْ تُعْطَ .

قال مَمدوح : لقد حَظِيَ عبدُ اللّهِ بحُبِّ الرّسول ـ صلّى اللّهُ عليه وسلّم ـ وكرَمِهِ وعَطفِه .

قالَ والِدُه : ولِمَ لا يا وَلَدي ؟ فقدْ تكَبّد عبدُ اللّهِ الكثير ـ مِثلَ باقي الصّحابة ـ لنَشرِ دينِ اللّهِ ونُصرةِ الإسْلام . أتعلَمُ يا مَمدوح أنّ عبدَ اللّهِ بنَ مَسعود ، هو أوّلُ صادحٍ للقُرآن بعدَ رسولِ اللّه ـ صلّى اللّهُ عليه وسلّم ـ ؟ فذاتَ يوم وهو مُجتمِعٌ ببَعضِ الصّحابَة ، قالَ أحدُهُم : واللّهِ ما سَمِعتْ قُريشٌ هَذا القُرآنَ يُجهَرُ بِهِ قَطّ ، فمنْ رَجلٌ يُسمِعُهُم إيّاه ؟

فقالَ عبدُ اللّه : أنا أُسمِعُهم إيّاه .

فأنكرَ أصحابُه عليه تطوُّعَه ، فإنّه أجيرٌ لأحَدِ سادَةِ مَكّة ، ضَعيفٌ ليس له من يَمنَعُهُ من بَطشِ قُريش .

ولكنَّ عبدَ اللّهِ بثقتِهِ باللّه ، وبإيمان راسخ ، قال : إنَّ اللّهَ يَمنعُنى .

وفى الضُّحَى والنّاسُ مُجتمِعونَ بأنديَتِهم ، بدأ عبدُ اللّه تِلاوَتَهُ بصَوتٍ مرتفعٍ يَسمعُه الجميع : بسم اللّهِ الرَّحمنِ الرَّحيم . الرَّحمن * علَّمَ القُرآن * خلقَ الإنْسان * علَّمَهُ البَيان ... فبَهتَ الجميعُ مِمّا أسْمَعَهم عبدُ اللّه ، ثمَّ انْهالوا عليهِ ضَربًا وقَذفًا بالحِجارة ، حتّى أدْمَوه ، وأصابوا وَجهَهُ وجَسدَه . هُنالك قالَ له أصْحابُه : هذا ما خَشِيْناهُ عليك .

فردَّ عليهم : ما كانَ أعداءُ اللّهِ أهونَ علىَّ منهم الآن ، ولئن شِئتُم لأُغادِيَنَّهُم بمثلِها غدًا .

قالوا : حَسبُك ، فقد أسْمَعتَهم ما يَكرَهون .

قالَ ممدوح : حقًّا إنَّ عبدَ اللّه يَتمتَّعُ بشَجاعةٍ عَظيمَة ، فقد قامَ بعَمَلٍ لا يقدِرُ عليهِ الكَثيرون .

قالَ والِدُه : فِعلاً هيَ شَجاعَةٌ وإقْـدام ، وقبلَ كُلِّ شَيءٍ هي إيمانٌ راسِخ ، وثقةٌ باللَّهِ عزَّ وجلّ . هذا معَ أن عبدَ اللَّهِ كان هَزيلاً يكادُ يَصلُ طولُهُ وهـو واقِفٌ إلى طـولِ القـاعِد ، ومع ذلـك كـان راسِخًا قويًّـا ، ذا إرادة جبّارة ، وقوّةٍ لا حُدودَ لها .

هذا وقد شارَكَ في جَميعِ الغَزَواتِ مع رَسولِ اللَّهِ - صلّى اللَّهُ عليه وسلَّم - ، وكانَ له موقـفٌ رائـعٌ يـومَ بَدرٍ مع أبي جَهل .

قالَ مَمدوح : درَسنا في المَدرَسةِ أنَّ عبـدَ اللَّـهِ بـنَ مَسعود ، كان من العَشرَةِ المُبشَّرينَ بالجَنَّة .

قالَ والِدُه : هذا صَحيح ، فقد بشَّرَه - صلّـى اللَّـهُ عليه وسلَّم - بالجَنّـة . فـذاتَ يـومٍ والرَّسـولُ وبعضُ الصَّحابَةِ مُجتَمعون ، رَأَوْا عبدَ اللَّهِ وهو فَوقَ شَـجرَةٍ يَجمعُ الأَراك ، فضحِكَ الصَّحابَةُ من رجلَيْ عَبـدِ اللَّـه ودِقَّتِهما ونَحافَتِهما ونَحالَتِهما . هنالك قـالَ - صلّى

اللّه عليه وسلّم - : تضحكون من ساقَيْ عبدِ اللّه بن مَسعود ، إنّهما أثقلُ في الميزانِ عندَ اللّهِ من جَبلِ أُحُد .

قالَ مَمدوح : إنّ سيرَةَ عبدِ اللّهِ شائقَةٌ جدًّا يا أبي ، فأكمِلْ قِصَّتَه . ماذا عَنه أيْضا ؟

قالَ والدُه : على الرَّغمِ من غَزارَةِ عِلمِ عبدِ اللّه ، وإجْلالِ النّبيِّ - صلّى اللّه عليه وسلّم - لهُ ولعلمِهِ وإيمانِهِ ، إلاّ أنه عندما يُحدِّثُ عن رَسولِ اللّه - صلّى اللّه عَليه وسلّم - يَرتعِدُ ويرتَجِفُ ويَتصبَّبُ عَرقا ، خَوفًا من أن ينسى ، أو يضَعَ حَرفًا مكانَ حَرف .

قالَ مَمدوح : أ لِهذهِ الدَّرجة ؟

قال والِدُه : إنّه نوعٌ آخرُ من الأمانَةِ .. أمانَةُ الكلِمَة .

وقد عَرفَ الصَّحابةُ قدرَ عَبدِ اللّهِ بن مَسعود ، فولاّهُ عُمرُ بنُ الخَطّابِ إمارَةَ الكوفَة ، وقالَ لأهلِها حينَ أرسلَهُ إليهِم :

- إنّي واللّهِ الّذى لا إلهَ إلاّ هو ، قد آثَرتُكُم على نَفْسى ، فخُذوا منه وتعلّموا .

وعلى غيرِ عادَةِ أهلِ الكوفَة ، الّذين كانَ يُعرفُ عنهم كَثرةُ التَّقلُّبِ والتَّمرُّدِ والثَّورَة ، أحَبّوهُ وأعَزّوهُ وأجَلّوه حتّى إنّهم رَفضوا إقالَتَهُ فى عهدِ الخَليفَةِ عُثمانَ بن عفّان ، ولكنّه أبَى إلاّ أن يُنفّذَ أمرَ الخَليفَةِ الجَديد ، مَنعا للفِتَنِ والقَلاقِل .

ومَرِضَ عبدُ اللّهِ مَرَضَ المَوتِ فى خِلافَةِ عُثمانَ بن عَفّان ، و زارَه الخَليفَةُ عُثمانُ وسألَه : ما تَشكو ؟

قال : ذُنوبى .

قالَ عُثمان : فمَا تَشتَهى ؟

قال : رَحْمَةَ رَبّىَ .

قالَ مَمدوح : ألرجُل مِثلِ هَذا ذُنوبٌ يَخافُ مِنها ؟ إنَّهُ مِثالٌ للإيمان ، حَفِظَ القُرآنَ وعَلَّمه ، وعاصرَ رَسولَ اللّهِ - صلّى اللّهُ عليه وسلّم - وتعَلّم منه ، وجاهدَ فى سَبيلِ اللّه . فضلاً عن أنّه من المبَشّرين بالجَنّة .

قالَ والدهُ : إنّه التّأرجُحُ بينَ الخوفِ والرَّجاء . إنّه يخشىَ اللّهَ وفى ذاتِ الوَقتِ يَتمنّى عَفوَهُ ورضاه .

وفى السَّنَةِ الثّانيةِ والثّلاثين من الهجرَة ، لحِقَ عبدُ اللّهِ بالرّفيق الأعلى ، ولسانُهُ رُطبٌ بذكرِ اللّه ، نَدِيٌّ بآياتهِ البَيِّنات . . .

وصليَّ عَليهِ جُموعُ المُسلمين ، ودُفِنَ بالبَقيع فى المَدينَةِ المُنوَّرَة .

قال مَمدوح : يا لَها من قِصّةِ رجُلٍ عابدٍ زاهد ، مُجاهدٍ فى سَبيلِ اللّه . إنّها بالفعلِ قِصّةٌ مُفيدةٌ ومُسلّيَة .

قالَ والِدُه : وماذا عن السّاعةِ يا مَمْدوح ؟

قـالَ مَمـدوح : غـدًا إن شـاءَ اللّـهُ أسـلِّمُها لإدارةِ المدرَسَة .

وفى اليومِ التّالى عادَ مَمدوحٌ مـن المَدرَسـة ، وهـو فرِحٌ سَعيد ، يحملُ وسامًا سلَّمه إيّاهُ نـاظِرُ المَدرسـة ، تَقديرًا لامانتِه وأخْلاقِه الكريمَة .